مهما سيد عبد الرحمن
قصة قصيرة
لُغز
حُرَّاس الفَنَار

الجزء الأول

بخطواتٍ هادئة غير مكترثة بالرياح الباردة التي تلفح وجهه، تقدم وهو يجاهد ليبقي على معطفه الأسود الأنيق في مكانه وقد كادت تقتلعه الرياح العاتية رغماً عنه، وصل إليه وهو ينفث دخان سيجاره وعيناه معلقتان على تلك اللوحة الرخامية المغطاة بالأتربة يتمعن فيها بشرود، قطع حبل أفكاره صوت عم أبو الوفا يقول في ترحاب:

-" سيادة القبطان كارم صفوان هنا! ظننتك لن تأتي ثانيةً مضى عدة أشهر دون قدومك على غير العادة فاعتقدت أنك قد استسلمت أخيراً! لكن يبدو أنني كنت مخطئاً!"

رمقه القبطان كارم بنظرةٍ حادة ثم قال في صرامة:

-" لا تتدخل فيما لا يعنيك أيها العجوز! واتركني وحدي الآن!"

نظر إليه أبو الوفا بمزيجٍ من الشفقة والضيق وابتعد في صمت دون أن يضيف حرفاً واحداً.

أعاد كارم نظره إلى اللوحة الرخامية العتيقة وأخذ يزيل أكوام التراب المتراكمة عليها بيديه ليظهر ذلك الاسم جلياً أمام عينيه: "رشوان عبد الصمد الأمين"

ضيق حدقة عينه وظهر الغضب جلياً على قسمات وجهه التي حفرت فيها التجاعيد دروباً عميقة تخفيها تلك اللحية البيضاء الكثيفة، ثم جلس على ركبتيه ووضع يده على القبر أسفل اللَّوح، وأخذ يتحدث مُعيداً تلك القصة التي حكاها عشرات المرات كلما جاء إلى هنا حتى أن عم أبو الوفا حارس المقبرة وأولاده قد حفظوها تماماً، قال بنبرةٍ صارمة:

-" لا أعلم لماذا كلما اتخذت قراراً بتركك وشأنك أجد نفسي قادماً إلى هنا رغماً عني! بالرغم من يقيني بأنك لست هنا! مضى ما يزيد عن العشرة أعوام لكنني لم أنس ذلك اليوم قط! ولن أنساه ما حييت، تلك النظرة التي رمقتني بها قبل أن تختفي تماماً! لا أعلم كيف ولا متى ولا أين هربت؟! بحثنا عنك في كل مكان فلم نعثر لك

على أثر! حتى أتى المحقق نصر سلَّام ببقايا تلك الجثة المطموسة المعالم بعدها بأيام وأخبر الجميع بأنها جثتك التي وجدوها ممزقةً في أعماق البحر بين الصخور، ثم دفنك هنا وأغلق القضية! أي عبثٍ هذا؟! لم أصدق حرفاً مما قاله، لقد رأيتك بعيني تهرب! هربت بعد أن قتلت المسكينين ناجي وبهاء داخل تلك المنارة اللعينة! لم يصدقني أحد حينها وأصر نصر على إنهاء الأمور بسرعةٍ غير مفهومة، جريمة قتل مجهولة الأسباب وقد نال القاتل جزاءه وانتهى الأمر!

ثم أصدر قراراً بإغلاق الفنار ومنع أي شخصٍ من الاقتراب منه نهائياً وخصوصاً أنا! لكني قد عاهدت نفسي على أن أجدك يوماً ما لتنال جزاءك، لم أكترث يوماً لتهم الجنون التي وصفوني بها، سكتُّ فقط حفاظاً على تاريخي الذي صنعته بالكدّ والتعب والعمل المتواصل، وأقسم لك سأظل حتى آخر نفسٍ في حياتي أبحث عنك!"

قالها وانصرف مغادراً في عصبية ونظرات الشفقة تتقافز من عيني أبو الوفا وهو يتابعه حتى اختفى عن نظره، وهمهمات أولاده الساخرة تفطر قلبه فلطالما تعاملوا مع كارم على انه عجوزٌ قد أعيا الخَرَفُ عقله بينما يراه هو مسكيناً يعاني من همٍّ ثقيل لا يشعر به أحدٌ سواه.

****

طرق على الباب مراراً في إصرار حتى فتح له خالد، رمقه كارم بنظرة تحمل مزيجاً من الغضب والعتاب، فارتبك كثيراً وخفض عينيه نحو الأرض يتحاشى النظر في عيني كارم وهو يقول في تلعثم:

-" تفضل يا قبطان أهلاً وسهلاً"

دلف كارم في صمت إلى داخل المنزل وجلس في غرفة الضيوف كعادته، ثم جعل يتفحص ملامحه في تمعن محاولاً سبر أغواره لمعرفة ما يخفيه، جلس خالد أمامه وهو يحاول صنع ابتسامةٍ زائفة يواري بها توتره الشديد لكن دون جدوى، انتفض في ارتباك مع تلك العبارة التي اخترقت أذنيه للتو والتي صاح بها كارم في غضب:

-" ماذا بك؟ لماذا تتهرب من لقائي منذ وفاة والدتك؟ ثلاثة أشهر لا تجيب على هاتفك مستغلاً سفري وعدم قدرتي على القدوم إلى منزلك؟ ماذا تخفي عني؟"

لاحظ ارتجافة يد خالد الذي لم يجد بُدّاً من الاعتراف بما يحدث معه، فقام من مكانه دون أن يعقب بحرف ودخل إلى غرفة والدته، غاب بضعة دقائق ثم عاد وفي يده دفتر قديم قد اصفرت أوراقه، وقف أمام كارم الذي ارتفع حاجبيه في دهشه وتركزت أنظاره على الدفتر متعجباً، مد خالد يده ليعطيه إياه، ثم أطلق زفرةً حاره قائلاً:

-"بعد وفاة أمي بأيام وجدت هذا في غرفتها، كانت تخفيه بداخل حقيبة جلدية كبيرة تحتفظ فيها بما تبقى من أغراض أبي رحمه الله التي تم تسليمها لها بعد وفاته، لكنني لم أكن أعلم بوجوده من قبل ولا أدري لمَ أخفته عني طيلة تلك السنوات؟! يبدو أنها قد أخفته عمداً حتى لا تزرع في رأسي فكرة الانتقام لوالدي. إنه مذكرات! كان أبي يكتبها أثناء عمله في ذلك الفنار وحتى يوم مقتله! منذ أن قرأته وأنا في حالةٍ من الاضطراب بين الحزن والخوف تزيد يوماً بعد يوم، أشعر بضيقٍ بالغ يُثقل كاهلي لا يقوى عقلي على استيعاب ما قرأت، تذكرتُ كل ما أخبرتَنِي أنت به عن يوم الحادث!"

ثم ازدادت نبرة صوته علواً ولمعت عينيه بنظرةٍ تحمل الكثير من المعاني وهو يقول في ثقة:

-" لقد كُنتَ مُحِقّاً! في الأمر سرٌّ كبير مفتاحه رشوان!"

اتَّقدت عينا كارم وارتسمت ابتسامه عريضة على وجهه فهي المرة الأولى منذ ذلك اليوم الذي يقول له أحدهم أنه مُحِق! لطالما قوبل حديثه بالاستهزاء بل وبالاتهام بالجنون في بعض الأحيان!

أخذ كارم الدفتر ووضعه في جيب معطفه الطويل ثم جلس في سكون شارد الذهن، ساد بينهما الصمت لبرهة قبل أن يقطعه كارم قائلاً:

-"لم أَشُك يوماً فيما رأيته! لقد كنت أمُرُّ على ذلك الفنار كل بضعة أشهر لأعوامٍ عديدة، كان قريباً للغاية من المرفأ، اعتدت لقاء حراسه فهو من المنارات القلائل التي لازالت في حاجة إلى حراس نتيجة تعرج الساحل الشديد في تلك المنطقة وضرورة وجود حراس لصيانته والحفاظ على استمرارية عمله خصوصاً في أيام

العواصف، وقد كان مبنى المنارة خاصته عتيقاً للغاية حتى أنه كان يُعد من المعالم الأثرية المُمَيّزةِ للمدينة لعقودٍ طويلة.

قابلت الكثير من حراسه، لكنهم كانوا يتركون العمل فيه سريعاً لم أفهم لماذا؟ كنت أظنهم يمَلُّون الجلوس وحدهم كل تلك المدة مع وحشة المكان وخصوصاً ليلاً ، حتى قابلت والدك ناجي رحمه الله، كان مختلفاً عنهم جميعاً هادئ الطبع ودود ومتفاني في عمله للغاية، كنت أتعجب من قدرته على المكوث في ذلك المكان وحده كل تلك الفترة مستمر في عمله بلا مللٍ أو كلل، حتى أتى بهاء الذي أحبه كثيراً واستمتع برفقته ومؤانسته له في وحدته لم يعكر شيء صفوهم حتى انضم إليهم ذلك اللعين رشوان، لم ترتاح له نفسي دقيقةْ واحدة منذ أن رأيته، والغريب أنه مع مرور الوقت كنت ألاحظ تغيراً غريباً يطرأ على ناجي وبهاء وخصوصاً ناجي الذي فقد هدوءه كثيراً في الآونة الأخيرة وأصبح دائم التوتر والقلق، كنت أشعر برغبته في إخباري بشيء ما لكنه كان يتراجع في اللحظات الأخيرة، حتى أتى ذلك اليوم!

كان الجو عاصفاً للغاية، عاصفة هوجاء لم أر لها مثيل منذ سنوات، كنت أعلم باقترابي من المرفأ، لكني للمرة الأولى لا أرى ضوء الفنار ولا أستطيع تحديد وجهتي وسط العاصفة، تعجبت كثيراً حينها فأنا على يقين أن ناجي يستحيل أن يتراخى في عمله في مثل تلك الظروف، حتى اصطدمت سفينتي باليابسة على بعد أمتارٍ من المنارة، نزلت أنا وطاقم السفينة ومع كلٍ منا مصباح نركض نحو المنارة لنحتمي من العاصفة، رأيت رشوان يركض مبتعداً ناديته وأنا أسلط ضوء كشافي باتجاهه فنظر إلي نظرةً لم أنساها قط مع ابتسامةٍ خبيثة ثم اختفى، دخلنا إلى المنارة لنجد جثتي ناجي وبهاء"

صمت في ألم وقد تلألأت دمعةٌ في عينه حاول إخفاؤها، ثم نهض في انفعال وانصرف مغادراً منزل خالد.

لم يفهم خالد لمَ أعاد كارم تلك الحكاية على مسامعه الآن فقد سمعها منه عشرات المرات من قبل لكنه للمرة الأولى يشعر بتلك الغصة تعتصر قلبه فقد بات على يقين بأن ما عاشه والده في ذلك الفنار كان مريباً إلى أقصى حد!!!!

الجزء الثاني

دلف كارم إلى منزله الذي كان يعيش فيه وحيداً بعد رحيل زوجته قبل سنوات، يواصل الهروب منه بين الحين والآخر بالسفر إلى أولاده الذين يقيمون خارج البلاد، أخرج دفتر مذكرات ناجي من جيب معطفه، وأطال النظر إليه لبرهة ثم وضعه على الطاولة المجاورة له، واتجه نحو غرفته لتبديل ملابسه، ثم أعد كوباً من القهوة وأخذ الدفتر ثم جلس على كرسيه الهزاز الوثير، فتحه وانهمك في القراءة وقد تأججت بداخله مشاعر مختلطة مع كلمات ناجي التي أثارت في عقله عاصفة من الذكريات، شعر وكأنه يسمع صوته في أذنيه يروي العديد من المواقف والأحداث التي شاركه بعضها، لم يكن فيها ما يثير الريبة بأي شكل، ظل يحتسي القهوة في هدوء مستمتعاً بتلك الحالة من السرور وكأنه يجلس مع صديقه الذي لم يره منذ سنواتٍ طوال، حتى وقعت عيناه على تلك الكلمات التي أثارت انتباهه وجعلته يعتدل في جلسته بحركةٍ مفاجأة، وتركيزه كله على منصبٌّ على ما يقرأه في تلك اللحظة:

-"اليوم وصل إلينا حارس جديد يدعى رشوان في أواخر الثلاثينات من العمر، لا أشعر نحوه بالارتياح مطلقاً رغم أن بهاء يخالفني الرأي تماماً ويحاول التقرب منه لكنه لا يزال شاباً يافعاً لم يحظ بالكثير من التجارب بعد، بالطبع أنا أدرى منه بطباع البشر فقد تعاملت مع الكثير منهم، ورشوان هذا عيناه تشي بالكثير، كثير الصمت ويبقى بمفرده طوال الوقت، ليس مريحاً على الإطلاق!"

كانت مذكرات ناجي كلها بالطريقة ذاتها مواقف متفرقة غير منظمة، في أحيانٍ كثيرة لم يكن يهتم بكتابة الوقت أو التاريخ، يبدو أنه لم يكن منتظم في تدوين الأحداث يومياً.

قلب كارم الصفحة والفضول يقتات على رأسه، وعيناه تلتهمان الكلمات في نهم:

-" مرَّ ثلاثة أيام ولازال شعوري تجاه رشوان لا يتغير، ذلك الرجل يخفي الكثير في جعبته، أصرَّ على المكوث في الغرفة العلوية بالطابق الثاني أسفل الفنار الموجود بالطابق الثالث، على الرغم من إخباري له بأن تلك الغرفة غير جاهزة للسكن ومغلقة منذ سنوات، والحراس لهم غرف معدة خصيصاً لسكنهم ملاصقة للناحية الغربية من مبنى المنارة من الخارج، لكنه أصر على رأيه حتى لا يبقى معنا أنا وبهاء، والأكثر غرابةً أنه يبقيها مغلقة بالمفتاح طوال الوقت، لم أعد اطيق السكوت

على ما يحدث لابد أن أعرف ما يخفيه بداخلها لقد قررت دخولها اليوم، اتفقت مع بهاء على تنفيذ خطة بسيطة لإخراج رشوان من الغرفة، سيقوم بهاء بطرق الباب عليه بقوة لمفاجأته واصطحابه إلى خارج المنارة لأمرٍ طارئ دون أن يتيح له فرصة إغلاق الباب بالمفتاح، وسأنتظرهم أنا حتى يغادروا ثم أصعد إلى الغرفة"

تعالت ضربات قلب كارم وهو يتابع في شغف التالي من الكلمات:

-"ذلك اللعين رشوان أغلق الباب بالمفتاح قبل مغادرته بصحبة بهاء، لم ينجح بهاء في مفاجأته بالقدر الكافي، يجب أن أفكر في طريقةٍ أخرى يبدو أنه لا توجد طريقه أخرى سوى الحصول على مفتاح الغرفة!"

اتسعت عينا كارم عن آخرهما وهو يحدق في العبارة التالية:

-" لقد دخلت الغرفة اليوم! وليتني لم أفعل سيتغير كل شيء إلى الأسوأ منذ الآن!!!"

قلب كارم الصفحة مسرعاً باحثاً عن تفسير تلك العبارة لكنه لاحظ وجود مكان لصفحتين ممزقتين!!!، جن جنونه وهو يغمغم في انفعال:

-"ماذا تريد أن تخفي عني يا خالد؟!!!!"

ثم تابع القراءة في عصبية:

-"اليوم جنحت سفينة باتجاهنا ليلاً، وكنا مشغولون للغاية في مساعدة طاقمها، لاحظت اختفاء رشوان رغم أنه كان دوره في المناوبة الليلية، أعلم أنه رغم كل ما أصبحت أعرفه عنه لا يتهاون في عمله، الأغرب فيما حدث اليوم هو ظهوره المفاجئ لم أفهم من أين أتى ولا أعرف أين كان؟!"

ازدرد كارم ريقه في ارتباك وقد تذكر تلك النظرة التي رمقه بها قبل أن يختفي من أمامه، ثم تابع القراءة:

-"اليوم من أكثر الأيام التي عشتها في حياتي حزناً على الإطلاق، لقد فشلت في حماية بهاء من رشوان، ارتكبت خطئاً فادحاً بعدم إخباره بالحقيقة، كنت أظن بأنني أحميه منه لكن ما حدث هو العكس تماماً"

ازدادت حيرة كارم وتابع يقرأ وقد ازداد شعوره بالتوتر كثيراً مع إحساسه باقتراب يوم الحادث ولايزال لا يفهم شيئاً:

-"أنا خائف! لم يخالجني شعور كهذا من قبل قط، أصبحت الأمور هنا تبعث على الجنون، لا أستطيع الهرب وترك بهاء بمفرده مع ذلك الوغد، لن يصدقني أحد إذا أخبرتهم بما يجري فهو يجيد الكذب إلى حدٍ لا يوصف وقد نجح في إخفاء كل شيء، أخشى الدخول معه في صدام قد لا أنجو منه مطلقاً!!!"

كانت تلك العبارة آخر ما كتبه ناجي! أخذ كارم يقلب في باقي الصفحات في عصبية لكنها كانت فارغة تماماً! ألقى بالدفتر بعيداً وهو يهدر في انفعال:

-"اللعنة!"

****

مضت ساعات الليل بطيئةً للغاية يتوسل النوم فلا يجده وعقله يجتر كل ما قرأه في ذلك الدفتر في محاوله لربط الخيوط والخروج بأي تفسير منطقي لما قرأه! لكنه فشل كلياً في الوصول إلى أي شيء، كان يظن في البداية أنه سيجد إجابات أسئلته بين سطوره لكن على النقيض تماماً تضاعفت الأسئلة التي ليس لها إجابة في عقله إلى الحد الذي جعله يعتصر ذهنه ليتذكر أي حوارٍ كان قد جرى بينه وبين ناجي لعله قال شيئاً في يوم ما قد يساعده في حل ذلك اللغز المحير، لكن بلا جدوى!

مرت الساعة تلو الأخرى حتى أشرقت الشمس وهو لا يزال يجاهد لينال ولو غفوة صغيرة، ثم فتح عينيه في ذهول مع صوت جرس الباب الذي يرن في إصرار، تعجب كثيراً وهو ينظر إلى عقارب الساعة التي تشير إلى السادسة والنصف صباحاً، اتجه نحو باب المنزل بخطواتٍ حذرة، ثم نظر من العدسة الموجودة في الباب ليرى من بالخارج، تراجع إلى الخلف في دهشة وقد اتسعت عيناه عن آخرهما وفتح الباب مسرعاً وهو يقول في انفعال:

-"خالد!!! ما الذي جاء بك إلى هنا في وقتٍ كهذا؟!"

لم ينتظر خالد حتى يدخل إلى المنزل ليجيبه، حدق فيه بنظرةٍ تحمل إصرارٍ بالغ قائلاً:

-" أريد أن أذهب إلى الفنار!"

أدرك كارم حجم الصراع النفسي الذي يعاني منه خالد في تلك اللحظة، فابتسم في هدوء وهو يفتح الباب ليفسح له المجال للدخول، ثم ربت على كتفه في حنان قائلاً:

-" تفضل يا ولدي لنتحدث بالداخل"

جلس خالد وهو ينظر إلى كارم على استحياءٍ قائلاً:

-"اعذرني أرجوك على ازعاجي لك في وقتٍ كهذا، لكني على وشك الجنون منذ قرأت مذكرات أبي وأنا لا أنفك أفكر فيما حدث وما عاشه قبيل وفاته وماذا فعل به ذلك اللعين رشوان وهل يمكن أن يكون حياً بالفعل كما تقول أنت؟"

ثم تابع في انفعالٍ بالغ:

-"إن كان كذلك فسأبحث عنه حتى أجده وأقتله بيدي! إجابات كل تلك الأسئلة تبدأ من هناك، من المنارة! لذلك أريد الذهاب الآن! أرجوك خذني إلى هناك قد نجد ما يرشدنا إليه"

انتظر كارم حتى أفرغ خالد كل ما في جعبته وهو يغمره بنظرات الشفقة على حاله، ثم تنهد في أسف قائلاً:

-" خالد يا ولدي! صدقني أنا أشعر بما تعيشه الآن، بل أنني قد عشته تماماً بعد الحادث، كدت أجن لأصل لطرف خيط يدلني على مكان رشوان، لكن ذلك كان مستحيلاً حينها فقد تم إغلاق المنارة بأمر الشرطة، ولولا أنها تعتبر منارةً أثرية لقاموا بهدمها خصيصاً بعد بناء منارة أخرى حديثة على مقربةٍ منها، والآن بعد مرور ما يزيد عن عشرة أعوامٍ على الحادث تريد الذهاب إليها؟! وتظن أنك قد تعثر على شيءٍ بداخلها؟؟!هذا مستحيل!!!"

قاطعه خالد في حماسٍ قائلاً:

-"بل على العكس تماماً! ما تقوله يؤكد خلوها من الحراس وعدم اكتراث أحدٍ لأمرها بعد مرور كل تلك السنوات، لن نخسر شيئاً من المحاولة بل إنني على يقين أن طرف الخيط موجودٌ هناك"

لمعت عينا كارم بنظرةٍ تحمل الكثير من المعاني وقد راق له كثيراً ما قاله خالد، كم تمنى أن يعود إلى هناك مراراً لكنه لم يكن يمتلك الجرأة الكافية لذلك.

لم يستغرق الكثير من الوقت في التفكير حتى رمق خالد بنظرةٍ مصحوبة بابتسامة تعني أنه قد اتخذ قراره بالفعل!!!!!!!!!

الجزء الثالث

كاد خالد يطير فرحاً حينما أيقن موافقة كارم على اصطحابه إلى الفنار، لكن كارم قطع احتفاله بقوله:

-"سآخذك إلى هناك لكن بشرط**!**"

تبدلت ملامح خالد وتطلع فيه مستغرباً، استطرد كارم حديثه قائلاً:

-"أن تحضر لي الصفحتين الناقصتين من مذكرات ناجي**!**"

صاح خالد منفعلاً:

-"ومن أين أحضرهما؟؟ لقد بحثت عنهما في كل شبر من المنزل وخصوصاً غرفة أمي ولم أعثر لهما على أثر**!** ما أظنه أنه تم قطعهما قبل وصول الدفتر إليها من الأساس**!** فلا أعتقد أبداً أنها من فعلتها"

أثارت عبارته دهشة كارم وصمت لبرهة يفكر في تلك العبارة قبل أن يجيبه قائلاً:

-"حسناً لا بأس**!** لنؤجل التفكير في أمر الورقتين لاحقاً ولنفكر الآن في الطريقة التي سندخل بها إلى المنارة"

ثم قام متجهاً نحو غرفته وعاد بعد دقائق وبحوزته حاسوبه الشخصي، ثم فتح برنامج الخرائط بصور الأقمار الصناعية، وبحث عن موقع الفنار حتى وصل إليه بدقة، ثم التقط لقطة شاشة للموقع وقام بتكبيرها ليظهر أمامه الفنار في غاية الوضوح مع ما يحيط به من كل اتجاه.

اقترب خالد من شاشة الحاسوب وهو يدقق النظر في الصورة أمامه والصمت يهيمن على كلاهما وكارم غارق في التفكير، ثم أشار بيده نحو موقع الفنار مخاطباً خالد وهو يقول:

-" كما ترى في الصورة مبنى المنارة القديم والأرض التي تحيط به مُطوَّقان بسياج حديدي مرتفع يجعلهما بمعزلٍ تام عما حولهما، له بوابه وحيده لا يمكن الوصول إليها سوى من داخل المرفأ بعد أن تم توسعته وضم مبنى المنارة القديم إليه بعد بناء ذلك الفنار الحديث على الجرف العالي هنا والذي يبعد قرابة الخمسة كيلومترات غرب المبنى القديم، وبالتالي سيكون دخولنا إليه براً مستحيلاً**!**"

ثم حدَّق كارم في عيني خالد وهو يستطرد حديثة بنبرةٍ واثقه قائلاً:

-"الطريقة الوحيدة للوصول إليه هي عبر البحر!"

ارتفع حاجبي خالد في دهشةً وهو يغمغم في خفوتٍ قائلاً:

-"هل هذا ممكن؟!"

أجابه كارم في حدة:

-"وهل هذا سؤال؟! أنا القبطان كارم صفوان لن يستعصي عليا شيء كهذا، كل ما أحتاجه هو بعض الوقت لأتدبر أمر قارب صغير نستطيع من خلاله الوصول إلى هناك!"

ثم صمت قليلاً ولمعت عيناه على نحوٍ لافت وهو يتابع:

-"لكن أولاً هناك مقابلة هامة للغاية أجلتها لسنوات قد حان وقتها الآن!"

لم يفهم خالد ما يقصده كارم لكنه أيقن أن الخطوة القادمة هامة وخطيرة للغاية!!!!

****

على شاطئ البحر جلس كعادته يستمتع بصوت تلاطم الأمواج التي تشعره بالاسترخاء، ألقى صنارته في هدوءٍ واثق غير مكترثاً بالساعات التي قد تنقضي قبل أن تهتز في يده معلنة نجاحه في أداء مهمته اليومية التي يحرص على القيام بها منذ تقاعده عن العمل قبل سنوات دون ملل، اهتز جسده في فزع مع تلك العبارة التي اخترقت أذنيه:

-" أصبحت عجوزاً للغاية سيادة المحقق!"

التفت حوله باحثاً عن مصدر الصوت لتنطلق من حلقه شهقة قوية، لقد عرفه منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناه عليه، عرفه رغم السنوات الطوال اللي تركت آثارها واضحة جلية على ملامح وجهه، لكنه لم ينساه قط! بل أنه طالما خشي لقاءه، وقف في ذهول وهو يصيح قائلاً:

-"القبطان كارم صفوان!!!!"

ابتسم كارم قائلاً في سخرية:

-"كان ذلك أسرع مما توقعت! لكن الأمر قد يبدو منطقياً إذا أخذنا في الحسبان وضع اسمي على رأس الأسماء الممنوعة من مقابلتك لسنواتٍ طوال، فأنت تعلم جيداً كم حاولت لقاءك منذ يوم الحادث، لكنك منعت حدوث ذلك بكل صرامة، بل والأكثر من ذلك عندما هددني رئيسي في العمل بفصلي نهائياً إن تحدثت في أمر رشوان مع أي مخلوق، أيقنت حينها أنك وراءه ورضخت لأوامرك لكنني لم أنسَ قط!"

ازدرد نصر ريقه في ارتباك وقال بانفعال:

-"كيف عرفت مكاني؟!"

زادت نبرة السخرية في صوت كارم وهو يجيبه:

-"أنت من أتى إليّ! مجيئك إلى شاطئ البحر يومياً سهل الأمر للغاية بل أنه بدى وكأنك أنت من تسعى إلى لقائي! ألا تعلم أن استراحات ومطاعم الشاطئ بطوله مكتظة بأصدقائي ومعارفي؟! رآك أحد أصدقائي القدامى وواحد من طاقم السفينة الذين حضروا الحادث وعلى علمٍ تام بكل ما رأيته في تلك الليلة، هو الآن صاحب مطعم قريب من هنا، عرفك بمجرد أن رآك وأخبرني منذ شهور لكني كنت مسافراً خارج البلاد، تعجبت حينها من القدر! أظل كل تلك السنوات أحاول الوصول إليك وحينما تسنح لي الفرصة تضيع هكذا؟! لكن بعدما عدت وعشت بعض الأحداث التي قد أخبرك عنها لاحقاً أيقنت أن لا شيء يحدث في هذه الحياة مصادفة، كل شيء يحدث في وقته المناسب تماماً نحن فقط من نستعجل حدوثه!"

بدا الانزعاج على وجه نصر وقال في عصبية:

-" أنا لا أفهم شيئاً من ثرثرتك هذه! ولا يهمني ما عشته وليس لدي ما أخبرك به، يؤسفني أنك تكبدت كل ذلك العناء لتلتقي بي بلا فائدة! والان انصرف ولا تحاول الاقتراب مني ثانيةً"

حدَّق فيه كارم بتحدي ثم أخرج من جيبه دفتر مذكرات ناجي وقال وهو يقترب منه بخطواتٍ بطيئة:

-" أتذكر هذا؟! إنه مذكرات ناجي الإثبات الوحيد على صحة كلامي، لكنه للأسف ينقصه صفحتين، وأنا على يقين أنك تعلم محتواهما جيداً!!"

اتسعت عينا نصر في فزع وتراجع للخلف خطوتين من المفاجأة، محاولاً السيطرة على أنفاسه المتلاحقة من فرط التوتر، فجلس على كرسيه قائلاً في خفوت:

-" اترك الماضي وشأنه يا كارم!"

-"أخبرني بما تعرفه ولن تراني ثانية أبداً"

-"ليست الأمور كما تظن وحديثي لن يغير من الأمر شيئاً"

-"إن أخبرتني الآن فقد لا يضطر ابن ناجي أن ينبش في الماضي ليأخذ بثأر والده كما ينوي أن يفعل!"

حاول نصر التظاهر بالتماسك واللامبالاة قائلاً:

-"فليفعل ما يشاء ليس لدي ما أخشاه"

لم يزد كارم حرفاً إضافياً وانصرف في عصبية وبداخله براكين من الأسف والخيبة من تلك المقابلة التي انتظرها طويلاً ولم يثمر عنها أي شيء سوى مزيد من الحيرة والتخبط، فقد كان يرجو أن يحصل على أية معلومة تثنيه عن فكرة الذهاب إلى المنارة التي لايزال غير مقنعاً بجدواها!

تابعه نصر حتى غاب عن عينه تماماً ثم أخرج محفظته من جيبه وأخرج منها ورقتين قديمتين للغاية مطويتان بعناية، فردهما وقرأ المكتوب فيهما ثم طواهما وأعادهما ثانيةً إلى المحفظة، ثم وضعها في جيبه وهو يغمغم قائلاً:

-" هذا ما كنت أخشاه! أن تأخذ بثأرك يوماً ما يا ناجي! لا أعلم ما الذي منعني من تمزيق ذلك الدفتر يومها؟!"

ثم أخرج هاتفه المحمول من جيبه وأجرى اتصالاً:

-" قابلني اليوم في منزلي أريدك في أمر في غاية الأهمية!"

****

بعد مرور أسبوع

وقف كارم في شرفة منزله وعيناه تتقدان حماساً، أخرج هاتفه المحمول من جيبه واتصل بخالد، ما أن أجابه حتى قال له في ظفر:

-"فلتستعد يا خالد! كل شيء أصبح جاهزاً سنبحر إلى الفنار غداً مساءً"

تهللت أسارير خالد وأمطره بعبارات الشكر والامتنان.

****

في صباح اليوم التالي وبينما كارم منهمكٌ في التفكير والتحضير لتلك المغامرة التي لا أحد يعلم ما الذي ستُسفر عنه، انتزعه من تركيزه صوت استقبال رسالة على أحد برامج التواصل عبر الانترنت، تعجب كثيراً فنادراً ما يرسل أحد له رسائل عبر تلك البرامج والتي لا يهوى استخدامها مطلقاً سوى للاتصال بأولاده، أمسك بالهاتف يقرؤها في فضول:

-"لا تذهب إلى الفنار الليلة سيكونون في انتظارك! هاتفك مراقب وجميع اتصالاتك يتم الاستماع إليها، قابلني الليلة في هذا العنوان، سأكون بانتظارك في تمام الثامنة مساءً"

اتسعت عيناه في ذهول وعاصفة من الأسئلة تدور في رأسه بلا هوادة!!!

الجزء الرابع

في تمام الثامنة من مساء اليوم التالي.....

وصل كارم إلى العنوان في الرسالة التي استقبلها على هاتفه تخبره بألا يذهب إلى الفنار، كان المكان عبارة عن مطعم راقي للغاية، دخل يتلفت باحثاً عن صاحب الرسالة الذي لم تكن لديه أدنى فكره عمن قد يكون وكيف سيعرفه؟!

فاجأته روعة المكان كثيراً ثم لاحظ خلو قاعة الطعام من الزبائن سوى طاولة واحدة كانت تجلس عليها فتاة تبدو في منتصف العشرينات من العمر، ظل واقفاً مكانه في حيرةٍ من أمره لا يعرف ماذا يفعل؟! وفجأةً وجد الفتاة تشير إليه ليتقدم نحو طاولتها، ارتفع حاجباه في دهشة وعقله يتساءل:" أيُعقل أن تكون هي من أرسل تلك الرسالة؟!"

اتجه إلى طاولتها بخطواتٍ مترددة، فوقفت لترحب به قائلة:

-"مرحباً بالقبطان كارم صفوان، أنا ريما نصر سلَّام"

اتسعت عينا كارم وظل محدقاً فيها وقد عجز عقله عن تفسير ما سمعه للتو!!

ابتسمت في تفهُّم وأشارت إليه ليجلس على الكرسي المقابل لها، فجلس دون أن ينطق بحرف وهو ينظر إليها في مزيجٍ من التعجب والحذر، ازدردت ريقها وأخذت نفساً عميقاً محاولةً السيطرة على توترها الشديد في صعوبة، ثم بدأت بالحديث:

-" القبطان كارم صفوان، اسمك تردد مراتٍ عدة في منزلنا منذ فترةٍ طويلة، لطالما سألت والدي عن السبب لكنه لم يجبني مطلقاً، وفي الأسبوع الماضي، جاء إلى منزلنا رجل لا أعرفه، سمعت بعضاً من حديثه مع والدي بالمصادفة، كان ما سمعته كافياً لأدرك أنهم سيراقبون هاتفك ليعلموا ما الذي تنوي فعله، لم أستطع مقاومة فضولي منذ ذلك اليوم وحاولت بشتى الطرق فهم ما يجري حتى مساء الأمس، سمعت والدي يتحدث في هاتفه وهو يقول:

-"لا تدعوه يصل إلى الفنار القديم مطلقاً! اسبقوهم إلى هناك وكونوا في انتظارهم!"

احترت كثيراً في أمري ولم أدرِ ماذا أفعل؟! وهل من الصواب أن أتدخل لأمنعك من الذهاب وأنا لا أعلم إن كنتَ مجرماً أم بريئاً وما هي قصتك؟ وبعد تفكيرٍ عميق

أيقنت أنك إن كنت مجرماً لكان والدي ألقى القبض عليك، فقررت البحث في الأمر أكثر، بحثت عن أي معلوماتٍ تتعلق بك على الإنترنت، فوجدت مقالة عنك يعود تاريخها لنحو خمس سنوات، كانت تحكي الكثير عن تاريخك الملاحي المشرف وتلك الحادثة التي أثرت فيك كثيراً وفقدت فيها صديقك والذي كان أحد حراس الفنار، تذكرت حديث والدي عن الفنار القديم وبدأت الأمور تترابط في عقلي قليلاً ، لكن ما أيقنته أنك بالطبع لست مجرماً، ثم لفت انتباهي رؤية والدي يقرأ ورقتين ويطيل النظر فيهما قبل أن يعيدهما إلى محفظته بحرصٍ شديد، تكرر الأمر عدة مرات بشكل لافت خلال الأسبوع الماضي، انتظرت حتى نام ليلة الأمس وأخذت الورقتين وقرأتهما**!"**

شهق كارم من المفاجأة لم يتوقع أن الورقتين لا زالتا بحوزة نصر حتى الآن**!** كل ما كان يطمح إليه هو معرفة محتواهما لا أكثر، استطردت ريما حديثها قائلة:

-"حينها اتخذت قراري بمساعدتك**!** بحثت حتى وصلت إلى صفحتك الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي لم يكن الأمر صعباً فقد ساعدتني صورتك كثيراً وكنت قد رأيت صوراً أخرى لك أثناء بحثي عنك سابقاً، ثم أرسلت لك تلك الرسالة**!"**

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها الورقتين وأعطتهما لكارم دون أن تزيد حرفاً إضافياً.

بيدان مرتعشان من فرط الارتباك أخذ كارم منها الورقتين وفتحهما وبدأ يقرأ:

-" منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها الغرفة وأنا اشم رائحة كريهة للغاية، ثم لفت انتباهي وجود صندوق خشبي كبير لا أعلم من أين جاء به رشوان فهو لم يكن بحوزته حين قدومه، كان مغلقٌ بقفلٍ كبير، جعلت أبحث عن أي شيء يساعدني في فتح القفل قبل عودته، لاحظت وجود العديد من الأدوات التي تستخدم في الحفر لا أعلم ما الذي يفعله بها فنحن لا نستخدمها مطلقاً في عملنا، تابعت بحثي على عجالة فالوقت يداهمني، وجدت مجرفة حديدية طرقت بها عدة مرات على القفل حتى فتح، ثم فتحت الصندوق**!**

ازدادت تلك الرائحة بشكل لا يطاق فقد كانت تنبعث منه بالأساس، صعقت حينما وجدت بداخله مجموعة من الصور وبجوارها خرقة بالية ملفوفة بعناية، فتحتها بحرص، ليقشعر بدني في قوة حينما وجدت بداخلها رفات طفلٍ صغير!!

لم أستطع تمالك أعصابي كان جسدي يرتجف بلا توقف، فأعدت الخرقة كما كانت، ثم أغلقت الصندوق وحاولت مراراً إغلاق القفل لكنه لم ينغلق تماماً، لا أعلم إن كان السبب ضربات المجرفة أم قوايَ الخائرة من هول المنظر، خرجت من الغرفة راكضاً وعدت إلى غرفتي، ظللت فيها حتى صباح اليوم التالي، وعقلي لا ينفك عن التفكير طوال الليل فيما رأيته وما يتوجب عليا فعله؟ وكيف ستكون ردة فعل رشوان حينما يعلم بما فعلت فقفل الصندوق لم يغلق جيداً بالتأكيد سيعلم! سيقتلني؟؟! يجب أن أبلغ الشرطة! لكن كيف؟! يجب أن أذهب بنفسي إلى هناك فلا وجود لشبكات الهواتف في هذه المنطقة والأسلاك معطلة منذ فترة ولم يتم إصلاحها حتى الآن! ومن ناحيةٍ أخرى لا أستطيع ترك المنارة ولا ترك بهاء مع ذلك المجرم وحده، سأبدل يوم إجازتي مع رشوان حتى يخرج من المنارة ثم سأترك بهاء وحده وأذهب لإبلاغ الشرطة"

-"تذكرت شيئاً في غاية الأهمية، تلك الصور بجوار رفات الطفل كلها كان بها رشوان وامرأة تحمل طفل صغير!!!"
-" شيء عجيب! نظرات رشوان لي تؤكد أنه على يقين من دخولي غرفته ومعرفتي لسره لكنه لم يفعل أي شيء غير اعتيادي، وذلك يقلقني كثيراً، وما يقلقني أكثر رفضه التام أخذ إجازة وترك الفنار، بل على العكس فهو يزيد من توطيد علاقته ببهاء كثيراً على نحوٍ أصبح يثير خوفي وانزعاجي على حدٍ سواء"

-" لاحظت اختفاءه اليوم فقررت الصعود إلى غرفته لأتأكد من وجوده بداخلها، وقفت عند باب الغرفة من الخارج فسمعته يتحدث مع أحد لم أفهم حرفاً مم يقول، لكني تأكدت من أن ذلك الرجل ليس مجرمٌ فحسب بل إنه مختلٌ عقلياً!"

****

ظل كارم صامتاً بعد انتهائه من قراءة الورقتين وقد كان ما جاء فيهما مفاجأة جديدة تهبط على رأسه لتزيد من حيرته وعجزه عن فهم أي شيء.

بقيت ريما تتابعه في صمت وهي تتمعن تلك الحالة التي تعتريه من الحزن والأسف والحيرة في آنٍ واحد، ثم أطلقت زفرةً حارة وقالت في خفوت:

-" ما فهمته حتى الآن أن من كتب الورقتين هو صديقك حارس الفنار الذي قُتل، وقاتله هو ذلك المدعو رشوان وهو من تبحث عنه أنت! أليس كذلك؟!"

انتبه كارم في تلك اللحظة إلى مدى ذكاء الفتاة، فابتسم في اعجاب قائلاً:

-"لا عجب فأنتِ ابنة نصر الدين سلَّام المحقق الشهير!"
ابتسمت في خجل، فتابع حديثه قائلاً:

-"نعم يا ريما ما قلتيه صحيح تماماً! لكن لا يزال هناك الكثير من الأمور الغامضة والتي لا أجد لها تفسير مطلقاً! لابد من أن أذهب إلى الفنار القديم بنفسي لقد حان الوقت لكشف الستار عن ذلك اللغز المحير"

قاطعته في حماس قائلة:

-" أريد أن آتي معك! أرجوك!"

رفض كارم في البداية رفضاً قاطعاً فهو لا يعلم ما الذي قد يجده هناك، لكنه استجاب لطلبها في النهاية بعد توسلاتها الشديدة، رغم ذلك الشعور العميق بالضيق وعدم الارتياح لتلك الفكرة مطلقاً!

****

بعد مرور عدة أيام...

التقى كارم وخالد وريما عند القارب الصغير الذي أستأجره كارم للذهاب إلى الفنار، بعد أن أجرى اتصاله بخالد منذ أيام ليخبره بتراجعه عن تلك الفكرة تماما لعدم جدواها بعد مرور كل تلك السنوات حتى يكفَّ نصر عن مراقبته ويضمن عدم وجود أحد بانتظارهم هناك.

كان كارم يجاهد ليخفي قلقه من تلك الرحلة المجهولة النتائج، بينما كانت ريما تتقد حماساً لخوض المغامرة المثيرة، وخالد يسترق النظرات إليها في مزيجٍ من الضيق والدهشة، فقد كان رافضاً لحضورها تماماً ولكنه لم يشأ ازعاج كارم حين أخبره بقدومها فآثر الصمت.

نصف ساعةٍ انقضت حتى وصلوا إلى شاطئ المنارة القديمة، قام كارم وخالد بتثبيت القارب جيداً قبل مغادرته لدخول المنارة.

سار ثلاثتهم عدة دقائق قبل أن يصلوا إلى مبنى المنارة، والشعور بالقلق والارتباك يظهر جلياً على وجوههم مع ظلمة المكان إلا من ضوء القمر، وأصوات الرياح المختلطة بأصوات الأمواج المتلاطمة تزيد المشهد مهابةً، المنظر في مجمله يدبُّ الخوف في القلوب يزيده رعباً رؤية مبنى المنارة القديم عن قرب، ذلك المبنى الاسطواني الشاهق الارتفاع والعتيق للغاية.

وقف كارم أمام بوابة المنارة القديمة المتهالكة ينظر إليها في تحدٍّ قبل أن يخرج مطرقةً من حقيبته ويضرب قفلها بها، كانت ضربةً واحده كافية لكسر القفل المتآكل من الصدأ، أضاءوا كشافاتهم ودخلوا إليها بخطواتٍ حذرة وأنفاسٍ متلاحقة من فرط التوتر، تدور في عقولهم عشرات الأسئلة عما قد يعثروا عليه بداخلها!!!!

الجزء الخامس

أدار كارم مصباح كشافه في جدران مبنى المنارة المحيطة به بعد أن دلف إلى داخله أولاً بخطواتٍ حذرة، ثم رفعه إلى الأعلى ليتأكد من حالة السلم إن كان صالحاً للصعود، ثم أشار إلى كل من خالد وريما ليتبعاه، وبدأ بالصعود حتى وصل إلى الغرفة في الطابق الثاني أسفل الفنار كما وصف ناجي في مذكراته، ضرب قفل باب الغرفة عدة مرات بالمطرقة حتى فُتح، فهو لم يصمد كثيراً بسبب طبقات الصدأ التي تكسوه، دخلوا الغرفة وأضاءوا مصابيحهم في كل زاويةٍ منها، لم يكن بها سوى سرير خشبي قديم وخزانة خشبية بها ثلاثة أدراج، بحثوا مراراً في كل شبرٍ منها فلم يعثروا على أي شيءٍ، أصابتهم خيبة الأمل وقرروا مغادرة الغرفة، خرج خالد ومن بعده ريما يليهم كارم، وأثناء خروجهم من الغرفة أضاء كارم مصباحه ووجهه للأعلى نحو مصباح الفنار وما أن وقع الضوء على عدسته حتى لمح شيئاً أثار انتباهه تنعكس صورته عليها، فصعد إلى الأعلى في ترقب وهو لا يزال يسلط ضوء المصباح عليه، تجمد في مكانه وهو يرى صندوقاً خشبياً مخبأ في الناحية المقابلة له، تردد في عقله ذلك السؤال:

-"أيعقل أن يكون هوَ؟"

تقدم نحوه وما أن فتحه حتى ارتعدت اوصاله مع أصوات الصراخ القادمة من الخارج، وتبعتها أصوات صراخ ريما والتي ارتج صداها في أرجاء مبنى المنارة، ألقى كارم نظرةً خاطفة على محتوى الصندوق ثم أغلقه سريعاً ونزل راكضاً ليرى ما الذي يحدث، وجد ريما وحدها تضع يديها على أذنيها وهي تبكي، بينما ركض خالد إلى الخارج باحثاً عن مصدر الصراخ، صاح كارم مخاطباً ريما:

-"لا تبرحي مكانك حتى نعود!"
لم يكن في حاجة لقول تلك العبارة فقدميها كانتا عاجزتين كلياً عن الحركة من فرط الفزع، لم يكد كارم يغادر مبنى المنارة حتى وجد خالد عائداً إليه ترتسم على وجهه كل علامات الذعر التي شاهدها يوماً وهو يقول:

-" شيء ما غير طبيعي على الإطلاق يحدث هنا! سمعت صوت صراخ امرأة يهز المكان ولا وجود لأحدٍ مطلقاً بالخارج، أعتقد أن قدومنا إلى هنا كان فكرةً خاطئة من البداية، فلنسرع بالمغادرة لن نصل إلى شيء!"

-"لقد عثرت على الصندوق!"

ألقى كارم بعبارته على مسامع خالد لترتجف كل ذرةٍ في كيانه، استطرد كارم حديثه قائلاً:

-"لم أكد أفتحه حتى سمعت صوت الصراخ"

غمغم خالد في خفوت:

-"هل كان بداخله؟!"

أجابه كارم بإيماءةٍ من رأسه وهو يقول:

-"نعم! لم ألمسه ولكني وجدت الخرقة ملفوفة تماماً كما وصفها ناجي، أعتقد أن رفاته لا يزال بداخلها!"

ازدرد خالد ريقه بصعوبة قائلاً:

-"أنا لا أفهم شيئاً!"

لم يكد يتم عبارته حتى سمعوا صوت صراخ ريما، فانطلقوا راكضين نحوها، ليجدوها ترتعد ذعراً وهي تشير نحو البوابة الأخرى لمبنى لمنارة والمؤدية إلى غرف الحراس وهي تصيح قائلةً:

-"سمعت صوتاً قادماً من هناك!"

تبادل كارم نظرةً ذات مغزى مع خالد، ثم تحركا نحو البوابة التي كانت مفتوحة، عبرها كارم أولاً يتبعه خالد ثم دلفا إلى مبنى الغرف، شعر خالد بانقباضةٍ في صدره حينما أدرك أنها المكان الذي قُتل فيه والده، انتزعه من تفكيره صوت خطواتٍ بالخارج، لم ينتظر كارم ثانيةً إضافية وخرج راكضاً من الغرفة إلى الباب الخلفي، الذي كان المخرج المباشر من مبنى غرف الحراس إلى الخارج دون الدخول إلى المنارة، لطالما دخل منه برفقة ناجي سابقاً، أدار مصباح كشافه في كل صوب فرآه من بعيد ينظر إليه النظرة ذاتها التي لم ينساها يوماً لكنه هذه المرة كان يبكي!

ارتجف جسد كارم ثم صرخ بكل ما أوتي من قوة:

-"رشواااااان!"

لم يكد خالد يسمع الاسم حتى اشتعل الغضب في كيانه وظل يركض خلفه كالمجنون، لم يستطع رشوان الإفلات منه فصاح في توسل:

-"دعوه وشأنه، أرجوكم!"

أثارت كلماته تعجب خالد وتوقف لحظات يفكر فيما يعنيه، ثم أدرك أنه يتحدث عن رفات الطفل، تأمل ملامحه لوهله فلاحظ مدى ضعف جسده النحيل، ونظرة عينيه التي يكسوها الألم والحسرة الممزوجة بالخوف والهلع، ليست تلك هي الصورة التي رسمها له في خياله منذ قرأ مذكرات والده، تحول غضبه إلى شفقه رغم عجزه التام عن فهم ما يحدث!

كان كارم قد وصل إليهما، توقف يجاهد ليلتقط أنفاسه قبل أن يجذب رشوان من ذراعه متجهاً نحو المنارة، في تلك اللحظة فوجئوا بعشرات المصابيح القادمة من ناحية البوابة الموجودة عند حدود المرفأ، صاح كارم مخاطباً خالد:

-" لقد علموا بوجودنا! أركض إلى المنارة وأحضر ريما وأنا سأسبقكم إلى القارب"

قالها وهو يجذب رشوان الذي يتلفت حوله في ذعر ليسير معه نحو القارب.

دخل خالد المنارة وهو يصيح منادياً ريما:

-"هيا أسرعي! لقد كشفوا أمرنا إنهم في طريقهم إلى هنا!"

نظرت إليه بعينين زائغتين من فرط الخوف وهي تقول بصوتٍ مرتجف:

-"أنا من أبلغتهم! لقد اتصلت بوالدي ولابد أنه أجرى اتصالاته ليرسل إلينا من ينقذنا لحين وصوله إلى هنا"

تطايرت شرارت الغضب من عيني خالد ولم يعقب على حديثها بحرف ثم تركها واستدار راكضاً نحو القارب.

****

في طريقهما نحو القارب استجمع رشوان قوته ودفع كارم دفعةً طرحته أرضاً وانطلق راكضاً، وكارم يلاحقه بعينيه وهو يصيح في جنون:

-"لا ليس ثانيةً! لن أتركك هذه المرة حتى أفهم كل شيء"

رأى خالد ما حدث بين رشوان وكارم من بعيد، فانطلق باتجاه رشوان قبل أن يلوذ بالفرار منهما، لكن المسافة بينهما لم تكن قصيرة، بدا رشوان على درايةٍ تامه بالطريق الذي يسلكه، وعيني خالد تتابعانه عن كثب وهو يحاول جاهداً اللحاق به، ثم انحرف يميناً وهو يتابع ركضه دون توقف، حتى لاحظ خالد وجود جرف صخري مرتفع، يمتد من فوقه السياج الحديدي المحيط بالفنار، ظهر وكأنه حائط أمام رشوان الذي تابع ركضه نحوه في إصرار، تعجب خالد كثيراً وهو يتساءل في حيرة:

-"إلى أين سيذهب؟!"

ثم تجمد مكانه عندما اختفى عن ناظريه، أضاء مصباح كشافه ووجهه نحو الجرف وهو يركض بكل ما أوتي من قوةٍ باتجاهه، لاحظ وجود تجويف وسط الجرف تغطيه الصخور من بعيد، لكن مع اقترابه منه ظهر مدخله بوضوح، خطا عدة خطواتٍ نحوه وهو يتطلع بحذر إلى داخله، اتسعت عيناه في دهشه حينما وجده ككهف صغير، به بعض الأغراض القديمة وفرشة على الأرض، يجلس فوقها رشوان وهو يغطي رأسه بيديه ويرتعد في ذعر، بحث خالد عن الكلمات فلم يجدها، تقدم نحو رشوان بخطواتٍ بطيئة وجلس بجواره يربت على كتفه ويقول في خفوت:

-"لا تخف لن نؤذيك"

لم يجبه رشوان الذي اكتفى بالتحديق فيه وجسده يرتجف بلا توقف، استطرد خالد حديثه في ألمٍ قائلاً:

-" لم قتلتهما؟ قتلت ناجي وبهاء!"

هزَّ رشوان رأسه نافياً وهو يجيبه بانفعال:

-" لم أقتلهما! هي التي قتلتهم جميعاً!"

قضب خالد جبينه في تعجب وهو يقول مستفهماً:

-"من هي؟! ولماذا قتلتهم؟"

تعالت الأصوات بالخارج فأدرك خالد أن رجال المرفأ قد وصلوا، لم يشأ ترك كارم وحده فساعد رشوان على النهوض وخرجا متجهين نحو مبنى المنارة.

****

بعد فترة قصيرة وصل نصر إلى المنارة فسارعت ريما إليه تلقي بنفسها بين ذراعيه باكية، ربت على ظهرها ليهدئ من روعها قليلاً ثم حدَّجها بنظرةٍ تحمل الكثير من اللوم والعتاب، فأطرقت رأسها نحو الأرض في خجل وهي تقول في خفوت:

-"أنا آسفه!"

قاطعها في صرامة:

-"سنتحدث في الأمر لاحقاً"

ثم تركها متجهاً نحو كارم لكنه تجمد مكانه وانطلقت من حلقه شهقةً عالية صاحبتها انقباضة شديدة في صدره ورجفةً سرت في كل ذرةٍ في كيانه حينما وقعت عيناه على رشوان الذي كان يقف بجوار كارم وخالد وهما يتجادلان مع رجال أمن المرفأ، تقدم نحوهم بخطواتٍ بطيئة ثم طلب من رجال المرفأ الابتعاد قليلاً ليتحدث إليهم وحده، فاستجابوا لطلبه وابتعدوا في هدوء، تطلع فيه كارم في ظفرٍ قائلاً:
-" حان الوقت لتقول الحقيقة!"

أجابه نصر بإيماءةٍ من رأسه موافقاً وعيناه معلقتان على وجه رشوان في ذهول، ثم أخذ نفساً عميقاً وبدأ يحكي ما حدث من البداية!!!

الجزء السادس

أخذ نصر نفساً عميقاً وبدأ يحكي ما حدث من البداية:

-"قبل سنوات من مجيء ناجي وبهاء إلى هنا، كان رشوان يعمل حارساً لهذا الفنار وحده، وكان حديث الزواج فطلب من رئيسه أن يحضر زوجته وطفله الرضيع معه حتى لا يتركهما بمفردهما لأوقاتٍ طويلة، وبالفعل أحضرهما وظلا برفقته نحو عامٍ ونصف، ثم حدثت حادثة مفجعة، تأثرت زوجته كثيراً بوحشة المكان وكآبته فكانت تنتابها نوبات من الهلع والصراخ خاصةً في أوقات العواصف مع أصوات صفير الرياح الشديدة، وفي ذات ليلة وأثناء تلك النوبة من الجنون والتي كانت قد تزايدت حدتها كثيراً مع مرور الوقت، ألقت بالطفل الصغير من النافذة المجاورة للفنار بسبب بكاءه الشديد وفشلها في إسكاته، وبعد أن أدركت مدى فجاعة ما قامت به ركضت مسرعةً نحو البحر وألقت بنفسها بين أمواجه، لم يكن رشوان قريباً منها في ذلك الوقت، ولم يستطع انقاذ ابنه، انتابه الهلع لما أصاب الطفل وهرع إليه، لكن بعد فوات الأوان! كان الطفل قد لقي حتفه، وأثناء بكائه ونحيبه على ما حدث لطفله لم ينتبه لزوجته حينما اتجهت نحو البحر لتلقي بنفسها، حاول اللحاق بها لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً واختفت بين أمواجه، بحثت فرق الإنقاذ عنها لعدة أيام بلا فائدة!

طلب رشوان حينها أن يدفن الطفل بنفسه بالقرب من المنارة، وأصر أن يقوم بذلك وحده دون تدخل أو مساعدة من أي أحد، فتركوه يفعل ما يشاء تقديراً للصدمة التي يعاني منها، بعدها خضع للعلاج النفسي نحو عام.

منذ ذلك الحين أصبحت تلك الحادثة مصدر قلق كبير لكل حارس يأتي للفنار فيما بعد، وخصوصاً بعدما تكررت حكاياتهم عن سماع صوت صراخ امرأة في المكان ليلاً، بل وأن بعضهم قد ادعى أنه رآها عند شاطئ البحر، لدرجة أنهم فكروا في إغلاق المنارة تماماً بعد رفض الكثيرين العمل فيها بسبب تلك الأقاويل المتداولة عنها، حتى أحضروا ناجي الذي لم يكن من هذه البلدة ولم تكن لديه أدنى فكرة عن تلك الحادثة، وكان ذلك مقصوداً حتى لا يرفض العمل، والغريب أنه لم يشتكي مطلقاً من أي أمرٍ غير اعتيادي أثناء فترة عمله، مما جعلهم يؤجلون قرار إغلاق المنارة بل أنهم أحضروا له بهاء ليعمل معه.

في تلك الأثناء كان رشوان يحاول محاولاتٍ مضنيه العودة إلى عمله بالفنار والتي رفضها مديره مراراً في البداية لكنه استجاب لطلبه مراعاةً لظروفه بعد الحادث رغم عدم فهمه لسبب إصراره على العودة إلى نفس الفنار، وبالفعل لم يعلم أحد السبب الحقيقي لإصراره على العودة سوى بعد ليلة مقتل ناجي وبهاء، حينما توليت التحقيق في مقتلهما وقرأت مذكرات ناجي، فهمت أنه عاد خصيصاً ليُخرج ابنه من قبره! لم أفهم نهائياً ما سبب قيامه بأمرٍ كهذا؟!

لكني استنتجت عند قراءتي لمذكرات ناجي، أن رشوان لم يدفن ابنه في الأرض مباشرةً بل دفن الصندوق بعد وضعه بداخله وهذا تفسير تأخر تحلل جثته كل تلك المدة، وقد تأكدت من ذلك عند سؤالي لطبيب والذي أخبرني أن تحلل الجثة قد يتأخر أعواماً عديدة قد تصل إلى عشرين عاماً بحسب طريقة دفنها ودرجة الحرارة المحيطة بها، لقد كان عقل رشوان يرفض فكرة رحيل طفله إلى الأبد!

بحثنا عن الصندوق داخل المنارة فلم نجده، ثم بحثنا عنه في المكان الذي دفنه فيه رشوان فلم نعثر عليه أيضاً مما زاد الوضع غموضاً وريبة، لكن ذلك لم يكن له صلة واضحة بالجريمة فتابعنا البحث عن رشوان في كل مكان لكننا أيضاً لم نجد له أثراً، فالأمطار الغزيرة التي صاحبت العاصفة في تلك الليلة محت أي آثار للأقدام خارج المنارة، لم نعثر سوى على آثار أقدام بداخل مبنى غرف الحراس مما أكد تواجده هناك وقت الجريمة الذي لم يكن قد مضي على حدوثها وقت طويل، وبالتالي لم يكن بمقدور رشوان الابتعاد كثيراً عن المنطقة، وبعد بحثنا عنه وعدم العثور عليه خطر ببالي احتمال كونه ألقى بنفسه في البحر هرباً من جريمته كما فعلت زوجته من قبل، فتوجهنا للبحث في البحر، وبالفعل عثرنا على تلك الجثة في الماء، ظنناها جثته وكان ذلك التفسير منطقياً وخصوصاً مع عدم قدرتنا على تحديد أي معالم للجثة مع تشوهها الكامل بسبب تمزقها بين الصخور، لكن إصرار كارم على رؤيته يهرب أثارت بداخلي العديد من الشكوك في الأمر برمته.

والذي زاد الشك بداخلي هو تقرير الطب الشرعي عن سبب وفاة ناجي وبهاء، والذي كان نزيف حاد ناتج عن ارتطام رأس بهاء بطرف طاولة حديدية أفضى إلى وفاته، وسكته قلبية أدت إلى وفاة ناجي بعده بدقائق، لم نجد أية بصمات لرشوان على الجثتين أو بداخل الغرفة، فقط آثار حذاء عند باب الغرفة، لا يوجد أية تفسير لما قد يكون سبب وفاتهما، وبعد التفكير ملياً في الوضع برمته، وحتى لا تتزايد

الحكايات عن ذلك الفنار وما يحدث فيه وتتحول قصة مقتلهما إلى مصدر للأساطير يضاف للحكايات التي تُروى عنه منذ الحادثة السابقة، كان القرار الذي اتخذناه حينها هو إنهاء القضية بالإعلان عن العثور على جثة القاتل رشوان وإغلاق المنارة تماماً منعاً لحدوث أية حوادث مفجعة أخرى مع الإسراع في بناء منارة جديدة.

لكن الشك ظل يساورني في حقيقة ما حدث في تلك الليلة، خاصةً مع إصرار كارم العجيب على تلك الحكاية التي يرويها، والتي قد تثير الكثير من الأقاويل حول الحادث خصوصاً مع عدم عثورنا على رشوان، فقررت إسكاته أولاً والبحث عن رشوان في هدوء.

بحثت عنه في كل مكانٍ قد يذهب إليه لشهورٍ طويلة، لكني لم أعثر له على أثر فاطمأن قلبي لكونه قد مات في تلك الليلة وتناسيت الأمر لفترةٍ ليست بالقصيرة، حتى أخبرني أحد رجال أمن المرفأ ذات يوم، أنه قد لمح شخصاً يخرج من مبنى المنارة القديم ، شككت في الأمر كثيراً، تذكرت قصة كارم التي حكاها مراراً عن اختفاء رشوان من أمام عينيه، طلبت منهم الذهاب إلى هناك ومراقبة المكان لفترة، لكنهم في اليوم التالي مباشرةً أخبروني عن صوت صراخ امرأة أثار فزعهم فهربوا فوراً قبل دخولهم إلى المنارة وقرروا عدم العودة إلى هناك ثانيةً، خطر ببالي أن يكون طيف رشوان يجول في المكان هو الآخر، وأصدرت أمراً بعدم الاقتراب من ذلك المبنى مجدداً، لكن على الرغم من ذلك، شعور بعدم الارتياح كان ينتابني كلما تذكرت تلك الحادثة أو قرأت الورقتين من مذكرات ناجي اللتين لم أجرؤ على التخلص منهما مطلقاً، ويتبادر إلى ذهني ذلك السؤال:

-**"تُرى ما حقيقة ما حدث في تلك الليلة؟ وهل حقاً يمكن أن يكون رشوان لا يزال حياً؟"**

ظلت تلك الحادثة تشغلني لسنواتٍ طويلة، وشعورٌ بالذنب حيال قاتل قد يكون حراً طليقاً رغم عدم وجود أي دليل على كونه قاتل من الأساس أو على كونه حياً**!"**

****

ران صمتٌ مُطبق عليهم بعد انتهاء نصر من حديثه، ثم التفت خالد يتمعن في عيني رشوان الشاردة بحثاً عن الإجابة، لاحظ رشوان نظرات خالد إليه والتي أعادته من ذلك العالم الذي يتوه فيه وحده، فارتبك بشدة وصاح وهو يهز رأسه نفياً:

-"لم أقتلهما أقسم لك، هي قتلتهما كما قتلت المسكين "علي"! لقد حذرت بهاء مراراً منها، لكنه كان يخشى إخبار اللعين ناجي الذي طالما حاول اقناعه أن صوت الصراخ غير حقيقي وهو ناتج عن صفير الرياح لا أكثر! لا أعلم كيف كان بهاء يصدقه؟؟! حتى أخبرته أنا بالحقيقة!

هل تعلم؟! لقد صعد ناجي إلى غرفتي دون إذني ورأى علي بعينيه يرقد كالملاك، خفت أن يؤذيه أثناء غيابي فأخذته إلى استراحتنا الصغيرة في ذلك الجرف، حيث كنا أنا وهو ووالدته نذهب لنقضي فيها بعض الوقت خارج المنارة وكأننا في نزهة، هو يحب ذلك المكان كثيراً.

وفي تلك الليلة وسط العاصفة الهوجاء كان صوت الصراخ يرنُّ في المكان على نحوٍ لا مجال لإنكاره، حدث عطل كبير في الفنار جراء شدة العاصفة، كان دوري في المناوبة الليلية حينها، حاولت إصلاحه وحدي فلم أستطع، اتجهت إلى غرفتهما لأطلب المساعدة، فوجدتهما يتشاجران بقوة! لم أرهما على تلك الحال من قبل مطلقاً، كان بهاء مُصِرٌّ على الرحيل من المنارة وترك العمل فيها نهائياً، التفت ناجي نحوي والشرر يتطاير من عينيه وهددني بإخبار الشرطة عما عرفه عني، في تلك الأثناء كان بهاء يتحرك باتجاهي في انفعال، جن جنون ناجي وانفجرت براكين الغضب في عروقه، وبكل ما أوتي من قوة دفع بهاء دفعةً لم يستطع جسده النحيل مقاومتها فاختل توازنه وسقط!

أثناء سقوطه ارتطمت رأسه بقوة في طرف طاولة حديدية كانت في منتصف الغرفة، وسالت دماؤه كالشلال على الأرض، صرخت من هول المنظر بينما وقف ناجي مذعوراً وهو يراه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم همَّ بالاقتراب منه لنجدته، لكن جسده كان يرتجف بعنف وقبل أن يخطو خطوةً واحدة سقط أرضاً هو الآخر!

كان صوت الصراخ في ذلك الوقت يبدو قريباً للغاية من شدته، فأيقنت أنها قتلتهما وقد حان دوري، كانت كل ذرةٍ في كياني ترتجف وأنا أفرُّ راكضاً إلى خارج المنارة، لم أصدق أنني نجحت في الابتعاد عنها قليلاً وقد توقف الصراخ، ومن شدة

فرحتي بنجاتي لم ألحظ وجود السفينة الجانحة، و فوجئت بالكثير من الرجال يركضون نحو المنارة، تابعت ركضي واختبأت في الجرف قليلاً، وكان صندوق علي بداخله خفت أن يعثروا عليه فدفنته في حفرةٍ قريبة من الجرف كنت قد حفرتها مسبقاً لأضعه فيها حتى أحميه من ناجي إن استدعى الأمر لذلك، بعدها تابعت ركضي مبتعداً عن الجرف في الاتجاه الغربي من المنارة، حتى وصلت إلى الطريق الرئيسي، كان الجو عاصفاً للغاية، لا وجود لسيارات على الطريق مطلقاً، ولا سبيل للعودة إلى المدينة، فعبرت الطريق إلى الناحية الأخرى منه باحثاً عن أي مكان أحتمي فيه!

كان الطريق مرتفعاً عن الأرض، تدحرجت لأتمكن من النزول عنه، ثم واصلت الركض بلا توقف، وأثناء ركضي وجدت سياج حديدي يحيط بأرضٍ واسعه يظهر بداخلها مبنى كبير من طابقٍ واحد، اقتربت منه فوجدت الكثير من الفتحات بالسياج، عبرت من خلال إحداها إلى داخل الأرض، ركضت باتجاه المبنى ثم لاحظت وجود منزل صغير في أحد أركان الأرض فاتجهت نحوه مسرعاً، طرقت الباب كثيراً ولما لم يفتح أحد ظللت أركله بقدمي حتى فُتح، كان المنزل خالياً تماماً فبتُّ فيه حتى الصباح، وفي اليوم التالي وصل صاحب المنزل ووجدني بالداخل فثار في البداية لكنه أشفق علي حينما وجدني في حالةٍ يرثى لها من المرض جراء الوقت الذي قضيته وأنا أركض أثناء العاصفة، كانت حرارة جسدي مرتفعةٌ للغاية إلى الحد الذي جعلني لا أدرك ما يحدث حولي كلياً، ظللت على تلك الحال لأيام، حتى استيقظت ذات يوم فسمعته يتحدث في الهاتف عن حادثة المنارة وعثورهم على جثة القاتل رشوان، انتفض جسدي حينما أدركت أنني متهم بقتل ناجي وبهاء ولن يصدقني أحد إن أخبرتهم بالحقيقة، فارتحت لخبر إغلاق القضية و العثور على الجثة!

أخبرته أنني ضللت الطريق أثناء العاصفة، وقد كان رجلاً عجوزاً يدعى عبد الرحيم هو حارس تلك الأرض المملوكة لرجلٍ ثري يعيش خارج البلاد، وذلك المبنى الكبير هو مخزن به أغراض خاصة به، وهو يعيش بمفرده ويسافر إلى قريته بين الحين والآخر، أخبرته أن اسمي علي وأنني كنت قادماً إلى المدينة للبحث عن عمل، ثم عرضت عليه العمل معه ومساعدته فرحب كثيراً.

بقيت مع الحاج عبد الرحيم نحو سبع سنوات بعدما أخبر رجال صاحب الأرض الذين كانوا يأتون مراتٍ قلائل كل عام ليأخذوا بعض الأغراض من المخزن

ويضعوا به أغراض أخرى، أخبرهم أنني أحد اقرباءه من القرية أحضرني لمساعدته، فلم يكترث أحد لأمري.

خلال تلك السنوات كانت تراودني فكرة العودة إلى الفنار لإخراج علي الذي اشتقت إليه كثيراً ويتمزق قلبي كلما تذكرت أنني قد تركته وحيداً تحت الأرض، لكني لم أجرؤ على الذهاب مطلقاً خوفاً من أن يفتضح أحدهم أمري خاصة بعد توسعات المرفأ التي نتج عنها وجود عدد كبير من العمال في المكان المحيط به طوال الوقت.

ثم توفي الحاج عبد الرحيم، وبقيت في المكان وحدي فراودتني فكرة إحضار علي ليظل بقربي، ظللت أتسلل كل ليلة لأتفحص المكان المحيط بالمنارة محاولاً إيجاد وسيلة للدخول لكني بقيت عاجزاً عن فعل ذلك لفترةٍ طويلة نتيجة السياج الحديدي المحيط بها، ثم فكرت في إحداث فتحة في السياج وبالفعل كنت أذهب إلى هناك كل ليلة لأقطع جزءاً منه، استغرق الأمر بعض الوقت لأقطع جزءاً كافياً لعبوري بالصندوق، حتى نجحت ذات ليلة في ذلك وانطلقت راكضاً نحو الجرف وأخرجته بالفعل، لكن صوت الصراخ ملأ المكان وأصابني بالذعر الشديد فقد مرَّ وقتٌ طويل منذ سمعته آخر مرة، انتابتني حالة من الهلع وخفت أن يأتي رجال المرفأ ويكشفوا أمري، فتركت الصندوق وفررت راكضاً.

ظللت لفترة لا أجرؤ على العودة، ويمزقني الشعور بالقلق من أن يعثر أحد على الصندوق، لكن كان لابد لي من العودة والمحاولة ثانيةً، استجمعت قواي وعدت، لكن هذه المرة كان الوضع أسوأ بكثير فقد رأيت طيفها عند الشاطئ وصوت صراخها يصم آذاني وهي تتجه نحوي، كدت أسقط مغشياً علي من الفزع، أيقنت أنها لن تدعني أغادر به وقد تقتلني إن فعلت، فحملته وركضت به إلى داخل المنارة من باب مبنى غرف الحراس الذي لم يكن يحتاج سوى إلى ركلةٍ قوية ليفتح على مصراعيه، صعدت إلى الأعلى حيث النافذة المجاورة للفنار لأحصل على بعض الضوء، ثم قررت تركه هناك فهو مكان آمن تماماً ولا أحد يجرؤ على دخول المنارة أو الاقتراب منها منذ سنوات.

وبقيت أذهب إليه لأبقى معه بعض الوقت بين الحين والآخر"

****

أنهى رشوان حديثه وهو يتلفت حوله ويحدق باتجاه الشاطئ في ارتباك وقد عاد إلى شروده ثانيةً، وعلامات الذهول ترتسم على وجوه كلٍ من نصر وخالد وكارم من هول ما ألقاه على مسامعهم، عقب كارم في تعجب:

-"هذا الرجل في حاجةٍ ماسة للعلاج!"

بينما رمقه نصر بنظرة شفقةٍ ممزوجةٍ بالأسف على حاله، ثم عقب على حديث كارم بإيماءة موافقةٍ من رأسه وهو يقول:

-"معك حق يبدو أنه قد عانى كثيراً!"

تنهد خالد في ضيق ثم عقب قائلاً:

-"هذا يعني أن أبي هو القاتل الوحيد في النهاية؟! ليتني لم أعرف الحقيقة!"

شعر كارم بالخجل مع سماعه لتلك العبارة، وحاول التخفيف عنه بقوله:

-" لم يكن يقصد! كان يحاول حمايته، أنت لا تعرف كم كان والدك يحب بهاء رحمه الله"

أطلق خالد زفرةً حارة دون أن يزيد حرفاً، ثم انطلق في انفعال نحو المنارة، أحضر الصندوق وخرج به وسط أنظار الجميع التي تراقبه في دهشه خاصةً مع صوت الصراخ الذي تعالى على نحوٍ مفزع، وحالة الجنون التي انتابت رشوان حين رؤيته يحمله، لكن خالد لم يكترث لأي شيءٍ من كل هذا وصاح فيه بعصبية قائلاً:

-"يكفي عبث يا رشوان يجب دفن هذا الرفات في الحال!"

ارتفع حاجبي كارم مع تلك الفكرة التي خطرت بباله حينها قائلاً:

-" طالما تلك الجثة التي أخرجتموها من الماء لم تكن لرشوان، فأغلب الظن أنها لوالدة الطفل، فلندفنه بجوارها".

****

اتسعت عينا عم أبو الوفا لرؤية كارم يطلب منه فتح القبر الذي طالما تردد عليه لسنوات لكن هذه المرة بصحبته ثلاثة رجال يحمل أحدهم صندوق، أخرجوا منه رفات ووضعوه بداخله.

بعدها أودع رشوان مصحة نفسية للعلاج.

****

ومنذ ذلك الحين لم يُذكر مطلقاً أن أحدهم قد سمع أي صراخ ثانيةً عند الفنار القديم!

تمت

****

الكاتبة مها سيد عبد الرحمن كاتبة رواية "مملكة سيڤارا"

الصفحة الرسمية للكاتبة:

https://www.facebook.com/Maha-Sayed-Abdelrahman-مها-سيد-عبد-الرحمن-117973116713609/